اثر جليل للقرن السادس عشر

رسالة البطريرك اغناطيوس نعمة الله السرياني

(١٥٧٩م)

عرّبها عن الاصل السرياني ، وافتتحها بترجمة حياة البطريرك المذكور

القس يوحنا عزّو ، كاتم اسرار البطريركية السريانية الانطاكية

٣

الرسالة (تتمة)

وتبرهن صريحاً هذه اللياقة التي يعالجها من يهتمّ بثبات البيعة المصطفاة وينشط لقوامها وتوضحها جلياً قصة رسامة الاب السامي القدر مار ملاتيوس الانطاكي الذي كان يتظاهر في بدء اصطفائه بانحيازه الى الاريوسية ويتحلّى بزيّها بحذاقة . ولهذا خُدعَ به الاريوسيون واختاروه لتبوّء السدّة البطريركية الجليلة . واخيراً لما اسفر عن استقامة ايمانه حطّوه عن الكرسي ونبذوه ، وهو غير منبوذ من المسيح ابي الآباء قاطبةً ، وهو الذي رسم اسقف قيصرية قبادوقيا مار باسيليوس الكبير والملفان الخطير وهذّب وثقّف مار يوحنا فم الذهب صاحب الكرسي القسطنطيني الواسع السمعة . وعليه فاذا ما انعمنا النظر فيمن ذكرنا وتقصينا اثر العدد الجمّ من الآباء القديسين غيرهم نظير مار ساويروس ورفاقه الذين اجتهدوا ويجتهدون في قوام البيع ، فنشاهدهم انهم كانوا يتوسلون بوسائل جمّة ويتدبّرون بأرابة ، ولاسيما اوان الشدائد ليدرأوا عن جماعة المؤمنين باسرها الاوازم المضرّة . فينجم ان خساستي ايضاً تتوافر لها دواعي النجاة ، وانها كانت بعيدة عن مواطن التقاعس والفشل ، ولم امل قطّ مقتنعاً بان يمتني ترٌ قليل من ضروب التواني والرخاوة . بيد ان كل ما بدا من وضاعتي وما

عالجته من الدهاء وسلوك الملاوي ومنازلة بأس جبابرة الجدّ والاجتهاد لم يكن الّا من اجل كرامة محبة البيعة وثباتها لا غير اذ وعدها تسمو على كلّ عاطفة وشاعرة فيّ انا الذليل . ولم استطع وليس في وسعي الآن ايضاً ان اتصوّر او يعلق في وهمي طرء ضيق ما او الم او مصيبة او هزء الاعداء واستخفافهم مما يمسّ كرامة البيعة الغالية على المسيح . وعليّ انا المصاب بداء لا دواء له البتة . ولاني صارحت حضرتكم فقط بالامر جرى بي ما جرى وكلّما يجرى الآن ، غير اني متأهب لان ارتضي للذود عن حياضها بكل ما يعرض لي من البلايا والرزايا ، وقد ازدادت فعلًا الآن اشجاني وتضاعفت الواحد مائة ولاجل ذلك عادت خنتي الى الاستمساك بحبال البنود والمصانعة المجدية مثل هذه الطوارئ نفعاً ، ريثما تتاح لي نهزة للتنصّل منها . لكنها تتفنن في استلابي الآخرة الثمينة التي يتوقعها الصناديد الشجعان فتدهورت الى اقصى الدركات السفلية خيفةً من ان ترى عيني او تسمع اذني شيئاً يضير البيعة المحبوبة او يؤلمها .

واعلموا باني منذ ساعة انفصالي عنكم لم اعدّ نفسي الّا مع اولئك الرصفاء الذين تقدّموا فتنعموا بالراحة الهنية السعيدة ، اعني الآباء السعداء الذين اضطُهدوا وعانوا الاخطار والآلام والضيقات الى ان تخطّوا هذا العالم الفاني وفازوا بالراحة الابدية في العالم الباقي . ولذا فلا يخطر لي شأن في هذا العالم ولا في العالم المرتجى مما يعود اليّ بالجدوى الّا ما يؤول الى نفع البيعة المقدّسة ونجاحها اولًا فترونني اتجلّد مستخفاً بكلّ ضروب العذاب وصنوف الانصاب التي تنتابني متلوّنةً يوماً فيوماً راجياً وواثقاً بوجدان ضالتي المنشودة وهي راحة البيعة ونعمتها . فها قد افضيت اليكم ، يا اخوتي ، بما تنطوي عليه سريرتي ، واطلعتكم على هدف آمالي وآلامي العميقة والمستكنّة في مخادع جناني . فارغب اليكم بحبّ ربنا ان تلبّوا ندائي وتحضيني بالمثابرة على حفظ النواميس والقوانين البيعيّة ، ولا تتهاونوا بها البتة . واعلموا انّ منية قلبي ومطمح اشواقي وقصارى املي الوحيد من رأفتكم ما اقتدر على ابرازه لكم بالتلميح ، لاني لا اتجرّأ على الاجهار به بالتصريح لاخوّتكم الاسرائيليّة والصادقة حقاً ، وهو ما قاله حليف البلايا يوسف الحسن واوصى به اخوته حين دنوّ اجله : « ارغب

اليكم ان تصعدوا بعظامي من مصر لاكون برفقتكم دائماً » . ولاني آنس من ذلك ولا يخطر لي ببال ابداً هذا الامر فاجترئ بالتذلل بين يديكم مستطفاً ان لا تنسوا نفسي التي حُرمت نجواكم في هذه العاجلة المحبطة المساعي والمثبطة الهمم ولا تدعوا ان يزول ذكري تماماً بعد ان اصير في الآجلة من سفر الآباء الذين عانوا برحاء الاضطهاد ومرارة الغربة ، ولا ترضوا ان يتوارى ويحتجب اسمي مع مواراة جسمي واحرم المساغة والصلوات من احدى البيع والاديرة القويمة المعتقد المبثوثة في كل قطر وضاحية . بل ليذكرني الجميع في تقدمة القرابين لاجل عنائي واهتمامي بقوام البيع وتشييدها ورفعة شأنها وحفظها كما تعرفون ذلك حقّ المعرفة ، وهو بادٍ لكثيرين ممن يعترفون بالحقيقة ولا يتأتى لهم جحودها . الا رحماكم عِدُوني بصدق المسيح بان تنظموا حثيث سعيي في سبيل بنيان بيعة الله في سلك الآباء المجاهدين الصلاح ذاك السعي المحفوف بصنوف الاخطار وضروب السجن والبلايا . وانا شدكم بحبّ يسوع الهي ان لا تظلموني وتبخسوا حقوقي ، وتفسحون المجال للمتقولين بايجادهم علّة للتشبث بما توحيه اليهم فكرتهم النازحة عن جادّة الحقّ والصواب فينحون عليّ باللوائم مستخذين لروح الحقيدة ، ولما أشربت قلوبهم من البغض والعدوان . وابذلوا الهمّة ، يا احبائي ، بتنظيم ايام ذلي وبلواي وألمي وعنائي ، لاجل بيعة الله في كل صقع وصوب وعلى الخصوص في المحالّ التي تعبت مع اهلها وتعبوا معي وارغب ان يذكروني بقربان مرة واحدة في السنة في الاعياد السيدية في جميع كنائس الكرسي ماردين وفي اديرتها وقراها كافة ، وفي مدينة آمد (ديار بكر) وكل قراها ، وفي مدينة حصن كيفا وقراها ، وفي جميع كنائس الجبلين المباركين الفوقاني والتحتاني واديرتها ، وفي مدينة السور ، والجزيرة ، وسعرد ، والموصل ، ومعدن ، والبشيريّة ، والمتخي (وتدعى اليوم حاح) وميافرقين ، وخرتبرت ، والجزير ، والرها ، وحلب ، وحمص ، وحماه ، وطرابلس ، ودمشق وقراها واديرتها ، وفي سائر كنائس المشرق والمغرب ، ولاسيما في المحلّ الجليل المقدّس الذي اتمّ فيه الهنا المتأنس تدابير خلاصنا ، اعني اورشليم ، وبالاخصّ حيث دفن جسده الطاهر . ولتكن تقدمة هذا القربان على النسق الآتي : وهو ان

يُقام في كل بيعة او دير قدّاس واحد في يوم معروف من السنة على مذبح تلك البيعة او الدير ذكرًا وراحة لنفسي الباذلة المُضطهدة ، ولتكن سنة ثابتة مع ثبات الطائفة السريانية للاجيال المقبلة . فاسأل اذًا بدالة مستعطفاً قداستكم ان تُمضوا بهذا الامر.

واخيرًا التمس منكم ان تبلّغوا سلامي مقرونًا بغزير البركات وجسيم الصلوات وتواتر الادعية نسمةً نسمة وصنفًا صنفًا وفردًا فردًا من سكان تلك البلاد المباركة الاعزّاء وسائر جماعة المؤمنين الاحباء اجمالًا وافرادًا ، مستمطرًا غيوث الرحمات الالهية على نفوس آبائهم المرحومين كلّ باسمه ورتبته وميزته. لا زلتم اصحّاء متعافين ومباركين بربّنا الذي يليق به الوقار والكرامة الى ابد الابدين. آمين.

انباء الايالات الفرنجية وبهوردها وحلوكرها

اولًا : رومية العظمى . يبلغ طولها ، اعني بعد مسافتها عن جزائر الطوباويين ، ٥٠ درجة و٢٧ دقيقة ، وعرضها ، اعني انحناءها عن قوس منتصف النهار اي خطّ الاستواء ، ٤١ درجة و٥٠ دقيقة . وهي مدينة كبيرة واسعة الارجاء مترامية الاطراف لا يسع الفارس ان يجوبها في خمس عشرة ساعة . وهي حديثة البناء ، لان المدينة القديمة التي تخبرنا عنها الكتب هي اليوم وحش لا ديّار فيها ، وقد خربت وتقوّضت من آساسها . وهذه الحديثة هي المأهولة الآن ، وهي قسم من تلك وملاصقة لها من ناحية الشمال الشرقي ، وموقعها شرقي جنوبي البندقيّة . ومناخها ردئ غير معتدل ، فهو شديد اللفح صيفاً وقارس النفح شتاء . وفيها امراض متنوعة . وكل موجوداتها تُباع باسعار مرتفعة غالية جدًّا . واهلها غريبو الاطوار لا يمازجون احدًا البتة. وفيها شعوب ولغات من كل جنس ميثوثون داخلها . وهي غنيّة بضروب العلوم ، وعلماؤها يعيسون تباهياً بها خارجياً مجاراة لابناء العصر ولكنّهم ينبذون ظهرياً الاكباب على تفهّم كنه معانيها ولا يتنبّهون على سبر غورها. لادراك. نمطها. والوسوخ في الاحاطة بها . ورومية مشحونة بالكنائس والاديرة المتجملة بانواع الزخارف

والرئيسات يربو عددها على الالفين عداً ، ويوجد فيها من الكهنة ما يوفي على العشرة آلاف ، ومن الرهبان ما ينوف على الستين الفاً بمختلف الرهبنات ، وفيها نحو ثمانين كردينالاً لكلّ منهم راتب حسب درجته ، فمنهم من يتقاضى سنوياً خمسة آلاف دينار ، ومنهم عشرة آلاف ، ومنهم عشرين وثلاثين وستين وثمانين وتسعين ومائة الف دينار ، ومنهم من يتقاضى مائتي الف دينار . هذا خلا ما يستوردونه من ريع اموالهم واملاكهم من مدن وقرى وحقول . اما المطارنة والاساقفة فيعدّون بضعة آلاف ، ورواتبهم كالكرادلة ، بل يوجد اسقف يرد عليه في السنة ثلثمائة الف دينار ويوجد من الكهنة من يدخل عليه في السنة الفان وثلاثة آلاف دينار . وراتب البابا اربعة وعشرون ديناراً في اليوم ما عدا الهدايا والتقادم والتحف التي ترد عليه يومياً من جميع الاقطار . وفي السبت الثالث من الصوم الكبير سنة ١٨٩٠ يونانيّة (١٥٧٩ م) رقّى تسعة الى الرتبة الكردينالية ، واهدى اليه احدهم مائتي الف دينار .

ويوجد في اوربة مدن عظيمة كبيرة يعسر احصاؤها ، وكلّها جليلة جميلة . واحسنها مدينة البندقية اذ لا يُلقى في المعمورة مدينة تضارعها رخاء وسناء على رغم انّ ممالك ومدن اوربة كافة تتلألأ حسناً وجمالاً بما يفوق بقية اقاليم الكرة الارضية طرًّا . وتبعد البندقية عن رومية مسيرة اثني عشر يوماً ، وهي مملكة رفيعة الشأن جليلة ، مكتظة بالمدن الكبيرة والبلدان والدساكر والقرى والضيع ما لا سبيل الى استقصائه عدًّا بحيث لا يتأتى لاحد ان يعثر فيها على قيد شبر بائرًا او مقفرًا . ومع ان في اوربة يوجد نحو مائة مدينة تحاكي رومية عظمةً فهذه وحدها استأثرت بالسمعة لدى الجميع . اما المدن التي تعمرها فتنيف على الثلاثة آلاف مدينة .

وفي هذه البلاد الغربية ملوك مسيحيون عظماء يطلق على كل منهم لقب سلطان السلاطين او عاهل (امبراطور) وعددهم ستة .

اولهم واعظمهم عاهل اسبانية . تحتوي دولته الجهة الغربية باسرها وجزيرة صقلية العظمى التي تعدّ اليوم اكثر من مائة وخمسين مدينة مشهورة عامرة . وفي اسبانية ما يربو على الثلاثمائة مدينة ، ويخضع لعاهلها اربعمائة

وخمسون مدينة في جزيرة اورغيس واكثر من ستين مدينة في قارة افريقية ، ومثلها في ايطالية . وتمتدّ مملكته الواسعة الى بلاد الهند الداخلية ، وله فيها سبع جزائر كبيرة يحيط بكلّ منها ثلاث وستون مدينة ما عدا مدن العالم الجديد (اميركة) التي اكتشفها هو واستولى عليها ، وهي خارجة عن الاقاليم السبعة ، ويقال انه هو الذي سعى في تنضر اهلها . وفي كل سنة يرد عليه منها سبع سفن كبيرة موسقة ذهباً وفضة لان المناجم المعدنيّة متوافرة فيها .

ثانيهم عاهل البرتغال . وولايته تشتمل على مائتي مدينة في ايطالية وافريقية وتتبسط سيطرته مستولياً على جميع المدن الشهيرة الذائعة الصيت . وفي مملكته ولايات ومقاطعات متنوّعة تمتدّ من حدود الغرب الخارجي الى بلاد الهند الداخليّة وتخوم الصين ما يتعادّ على الخمسمائة مدينة .

ثالثهم عاهل الفرنج اي فرنسة ، وعنه نجم اسم الفرنجة . وهو يسود على فرنسة برمّتها ويبلغ عدد مدنها ثلاثمائة وستين مدينة ، ويملك ايضاً على قسم من بلاد فروجية يعدّ مائتين وثلاثين مدينة . وكان هذا العاهل في اول امره اعظم من عاهل اسبانية . اما اليوم فلاسبانية التقدّم عليه .

رابعهم عاهل المانية . ومملكته واقعة غربي كيت وسيدوار التي اغتصبها الترك في عهدنا ، وتمتدّ الى اقصى بلاد المغرب . وعدد المدن التي تحت سلطانه يتعدّى الخمسمائة مدينة ، وعاصمته الآن بيج الشهيرة .

خامسهم عاهل المجر . وهو من اعظم الملوك واشدهم صولة وبأساً وهو ملك بلاد اللاد المتاخمة بلاد كفا والروملي وبودون وهي تتصل بمملكة الالمان والروس والبلغار ، وفيها ما يجاوز الاربعمائة والسبعين مدينة .

سادسهم عاهل موسكو (روسية) . ولا يوجد الآن في هذا الزمان بين الملوك من يماثله بالصولة والشوكة يخضع لسلطته شعوب مختلفة اي الروس والبلغار والسرب والتتر والشركس ، وتشتمل مملكته على الاقطار الغربية الشمالية من حدود بلاد الالمان واللاه وقرابوجدان وفلق ، وتحيق بالبلاد الشمالية كلها الى ان تتصل ببلاد الايبريين اي الكرج والترك الشرقيين . بدين هذا العاهل بديانة الملكيين اي اليونان . وكل من هؤلاء الملوك الستة العظام

تسمّى عاهلًا (امبراطورًا) .

— وفي هذه الاقطار يوجد ايضاً ملوك عظام غير الذين اتينا على ذكرهم ، ولهم ممالك عظيمة تضارع الممالك الآنفة الذكر .

اولها فينيسية اي البندقيّة ، وهي مملكة مستقلّة بنفسها ، لا تعنو لاحد البتة ، وهي عزيزة قويّة خصبة غنية بل هي اغنى من مملكة تركية الاسلامية يخضع لها اكثر من مائة وسبعين مدينة مشهورة وعشر جزائر كبيرة تحاكي جزيرة قبرس .

ثانيها مملكة جنوة ، ونظامها يشبه نظام البندقية ، وهي جمهورية يرئسها واحد منهم ينتخبونه ويلقون عليه القرعة مع اربعة او خمسة آخرين يتعادلون فضيلة وعدالة ، فمن تصيبه القرعة ينادى به طوعاً اي ملكاً ، فيعنون له ويضربون الدراهم باسمه . على ان هاتين الجمهوريتين متساويتان بالقوّة والثروة والبلاد والمدن .

ثالثها ، وتدعى مملكة لوكا ، وهي تضارع المملكتين المتقدّمتين وتعادلها قدرًا وولاية .

رابعها مملكة مالطة تحاكي من سبقوها باقامة الملك فقط . اما في بقية الامور فهي افقر واحطّ واصغر . وهذه الممالك الاربع هي جمهوريات .

وفي هذه الاقطار ملوك أخر عظام مستقلون بنفسهم لا يخضعون لغيرهم من الملوك ، وتحت حوزتهم عدّة ولايات ومدن كبيرة . اولهم ملك فلورنسة ، يحكم على مائة وخمس وثلاثين مدينة . ثانيهم ملك سافونة ، تحت حوزته مائة وسبعون مدينة ولا يدين لاحد البتة . ثالثهم ملك اوركين ، تحت حوزته مائة واثنتا عشرة مدينة . رابعهم ملك بارما ، يضمّ مملكه ما يتعدّد على المائة والسبعين مدينة . وكل من هؤلاء الملوك مستقلّ بنفسه . وما عدا هؤلاء الملوك ففي بلاد المغرب امراء كثيرون يقال لهم دوكاوات يتولى كل منهم اربعين او خمسين او ستين مدينة .

فاعلموا ، يا اولادنا الاحباء ، واعتبروا انّ هؤلاء الملوك والسلاطين والولاة بقاطبتهم مع ما يتولّون من البلاد كما وصفنا خاضعون لسلطان الحبر الاعظم بابا

رومية الجليل ، ما عدا واحداً منهم فقط ، وهو عاهل روسية فانه بمعزل عنهم يخضع للبطريرك القسطنطيني القائل بمقالة اليونان الملكيين ، والبقية جميعاً تحت ولاية رئاسة بابا رومية الاكرم . ولا تكتم نيّرتكم ، ايها الاعزاء ، ان للبابا الاثيل صاحب الكرسي الرسولي الروماني السامي مملكة في بلاد ايطالية ممتازة تختصّ بسيادته ، غير التي اوردناها ، يديرها هو بنفسه ، وهي مملكة ايطالية كلها وليس لسواه الحقّ في الولاية عليها من الملوك المذكورين وهي تشتمل على اكثر من اربعمائة وستين مدينة شهيرة ، وله ما للملوك السابقي الذكر من السلطان والنفوذ.

والخلاصة يجدر بقداستكم ، يا تاج رأسي ، ان تعقلوا وتحيطوا علماً بان هذه هي ولاية المسيحيين الفرنج . فالمجد لربوبية ربّنا يسوع المسيح الملك الشديد البأس الذي امتدّت مملكته وتجلّت في هذه الاصقاع واتسعت هذا الاتساع العظيم.

تنت الاخبار المختلفة في شأن ممالك المدن وولاياتها وكيفية قوامها ونظامها وملوكها . ما سطّره وارسله الينا ليعرّفنا به البطريرك المظلوم نعمة الله الذي غادر بلادنا على اثر مصيبة حلت به فيها ، فلاذ بالهرب الى رومية العظمى بين الفرنجة وعلق يبحث بكل دقة عن المدن وولاياتها فألمّ بها واطلعنا عليها بهذا النسق . ليرحمه الربّ .